شرارة آذار
دعوة للتفكير بصوت مرتفع
مجلة فكرية ـ فصلية
جدل
دعوة للتفكير بصوت مرتفع
تصدر عن مركز جيرون الإعلامي
العدد ١٠٦ ٢٣/٢- ٢٠١٤/٣/١
للمراسلة: infoshrara@gmail.co

بروفات ساعة الحسم

صبر درويش

تشير الملاحظة إلى بدء تفكك جبهات محيط العاصمة دمشق، وذلك بعد أكثر من عام على الصراع المحتدم بين قوات المعارضة التي نجحت في بداية الأمر في فرض سيطرتها على اغلب محيط العاصمة من جهة وبين قوات الأسد من جهة اخرى.

وعلى الرغم من كل الزخم الاعلامي والسياسي وحتى المالي الذي كان مرافقاً لهذه المعارك إلا أن قادة الالوية والتشكيلات العسكرية المعارضة المختلفة لم يتمكنوا من التقدم لأكثر من حي جوبر شمال شرق العاصمة، وحي اليرموك في جنوبها، وبقيت "جيوب" عسكرية تابعة لقوات النظام خارج إطار هذه السيطرة، وبقيت هذه الجيوب أشبه بأسفين يخترق معظم الجبهات المحيطة بالعاصمة.

ماذا حدث عبر هذه الأشهر الطويلة؟ ولماذا توقف "زحف" قوات المعارضة باتجاه وسط العاصمة دمشق؟ وهل مراوحة قوى المعارضة في مكانها عبر كل هذه الفترة كان نتاج قرار سياسي أم ناتج عن طبيعة هذه القوى التي لم تتمكن من التقدم؟

ثمة أسئلة مهمة تطرحها الأحداث التي جرت في هذه المنطقة، وما ترتب عليها من نتائج مست عصب الثورة في كل تفاصيلها، وساهمت في تشكيل ملامح المرحلة الراهنة.

في مثل هذه الأيام من العام الماضي اطلقت واحدة من اكبر المعارك في الغوطة الشرقية، معركة ربيع المجاهدين، والتي شارك فيها أكثر من تسعة عشر تشكيلاً عسكرياً للمعارضة من بينها التشكيلات الأقوى على الاطلاق كلواء تحرير الشام بقيادة النقيب فراس البيطار، ولواء الاسلام بقيادة زهران علوش، وجبهة النصرة وغيرها العشرات من التشكيلات المقاتلة.

كان يفترض في هذه المعركة تحرير إدارة المركبات، وهي واحدة من اهم المواقع العسكرية التابعة للنظام، والواقعة في وسط مدينة حرستا والمطلة على مدينة عربين.

في نهاية عام ٢٠١٢ حاول لواء الاسلام بقيادة زهران علوش اقتحام الإدارة رافضاً في تلك الإثناء التنسيق مع أي جهة أخرى؛ إذ كان من الدارج في تلك الأثناء الحديث عن "الغنائم" والتي شكلت الدافع الاهم لشن المعارك ضد مواقع النظام، وكانت تشكل الإدارة ثروة منها، ومما أعطى علوش هذه الثقة في قدرته منفرداً على اقتحام الإدارة النجاح الذي حققه في السيطرة على مطار مرج السلطان جنوب الغوطة الشرقية.

يقول ابو ابراهيم وهو احد قادة المجموعات الذين التقينا بهم على جبهة حرستا أثناء عملية ربيع المجاهدين: "بشكل عام كان لدى جميع القادة وحتى المقاتلين الثقة التامة بسهولة اقتحام الإدارة، وكان الجميع مندفع في هذا الاتجاه، وفعلاً بعد عدة أيام من الحصار، تمكنا من اقتحام المعهد الفني العسكري الواقع على جبهة عربين، دخلنا المعهد ورأينا صناديق الذخيرة ملقاة على الأرض، سارع المقاتلون لجمع الذخائر بينما القادة الميدانيون فسارعوا إلى التصوير والإعلان عن السيطرة على الإدارة" يتابع أبو ابراهيم بالقول: "وماهي إلا لحظات وبدأت نار جهنم تصب فوق رؤوسنا، قذائف من كل الأنواع، قذائف هاون، ومدفعية وراجمات، ومن كل الاتجاهات، كانت مجزرة حقيقية، لم ينجو منها سوى القليل وكنت أنا من بينهم". تؤكد رواية أبو ابراهيم عدة شهادات أخرى تذهب في الاتجاه ذاته، بينما كان عدد ضحايا هذه المجزرة فيقارب المائتي مقاتل.

يبرود: معركة النصر الضائع

فادي الداهوك

لا ليلَ في يبرود يكتم سرّ ما حصل. هناك على جبال القلمون، التي تقول نبوءة السوريين في سراقب أقصى شمال البلاد عنها، إنها "عندما تعانق بساتين الغوطة ستولد دمشق"، لا وقت للكلام. الفعل فقط هو الحاضر، بعد معركة، قيل، أو وَعد رجال "الحزب الواحد" أن يزرعوا، وهم يخوضوها، الرعب في قلوب أهل يبرود، فحصل أن لا نصر يرجع به الرجال الذين جاد بهم هذا أو ذاك.

وإن كانت الأحداث على الأرض ليست على ما يرام، فحتى الفضاء الإعلامي لا يمكن أن يجمّل الصورة، إذ فجأة، وبين إعلامَين، الاختلاف بينهما هو لهجة مذيع الخبر فقط، بدأ يتراجع الحديث عن معركة يبرود. ربما هي المفاجأة أو التسرع، الذي يقف خلف قرار غير مدروس، أو ربما هو التهور نفسه، الذي قاد إلى وصف أهل يبرود بـ"اليهود" وليس بـ"الصهاينة" مثلاً، ما قاد إلى الإيحاء بأن النصر تحصيل حاصل في المعركة قبل ان تبدأ.

الأخبار المتوفرة، أو التي تسمح غرفة العمليات العسكرية المشتركة في القلمون، بإعطائها لوسائل الإعلام، تقول إن الرد على تقدم حزب الله وقوات النظام، لا يكون بالرصاص، بل بالدبابات، وأحياناً بالصواريخ الحرارية، المتوفرة بكميات جيدة في القلمون، عندما تقتضي الحاجة إلى ذلك.

في المقابل، للطرف الآخر روايته، إذ تقول مصادر النظام، إن المعركة دخلت في مرحلتها الثالثة. الحديث عن مرحلة جديدة، لم يسبقه أي إشارة إلى أن المعركة تخضع إلى تكتيكات تقسيمها إلى مراحل، وربما يكون ترويج هذا الإعلان، مقدمة، لتبريرات جديدة تمهد لنسيان الأهداف الرئيسية وراء الإعلان عن بدء المعركة، ثم إغراق الحديث عن المعركة بالتفاصيل، مثلَ أن يصبح في مرحلة، لاحقة، قريبة، عن حصار تفرضه قوات النظام وحزب الله، لإحكام سيطرتهما على مداخل ومخارج المنطقة، تمهيداً لاقتحامها، وذلك تمهيداً لأمر ثانٍ، يصل إلى القول إن الاشتباك المباشر اقتربَ.

ولذلك تفسير، ربما يكون يتيماً، هو أن حقيقة تلك التمهيدات، ليست إلا إضاعة وقت ريثما يحدث اختراق ما على جبهة القلمون نفسها أو في مكان آخر، يقود إلى تراجع النظام عن فكرة اقتحام يبرود، بحجة تطبيق قاعدة الأولويات

التتمة في الصفحة ٢

تتمة : بروفات ساعة الحسم

صبر درويش

استمر الحصار لأشهر حتى اقتنعت قيادة لواء الاسلام باستحالة اقتحام الادارة، فطلبت مشاركة باقي التشكيلات العسكرية الأخرى، وهو ما حدث فعلاً في منتصف شباط من العام ٢٠١٣. واوكل للنقيب فراس البيطار مهمة قيادة العمليات الميدانية مع ثلة من الضباط المنشقين الأخرين.

لأسابيع والتحضيرات تجري على جبهتي حرستا وعربين، وضعت المتاريس وشقت طرق الامداد، وجمعت القوات وبدأ التحضير لواحدة من أضخم عمليات محيط دمشق على الاطلاق؛ وكان التركيز يجري على جبهة حرستا حيث تقع المباني الرئيسية لإدارة المركبات. بينما مآذن الغوطة بكل بلداتها فكانت تصدح بالدعاء للمقاتلين ليل نهار.

وفي الوقت الذي كانت تجري فيه التحضيرات على جبهة حرستا، اتت الأوامر ببدء العمليات العسكرية انطلاقاً من جبهة عربين!. اتخذ القرار خلال ساعات، ونقلت القوات لتتمركز في محيط المعهد الفني العسكري؛ كان حشداً كبيرا من المقاتلين، وأنواعٍ متعددة من الأسلحة بدءً بالبنادق وصولاً إلى الدبابات؛ ومع ساعات الفجر الأولى بدأت العمليات العسكرية، وقبل أن ينتصف النهار كانت قوات المعارضة تحقق تقدماً مهماً باتجاه احكام السيطرة على المعهد الفني العسكري؛ بعد منتصف الظهيرة بقليل بدأت قوات النظام بقصف شديد مركز من عدة محاور، اربك قادة العمليات الميدانية وسقط العشرات من الجرحى والقتلى، واستمر القصف حتى الساعات الأولى من الليل، حيث اتت الأوامر بالانسحاب من المنطقة.

في هذا اليوم انتهت عمليات "ربيع المجاهدين"، ولم تحقق أياً من أهدافها، بينما يقول عيسى وهو أحد المقاتلين الذين شاركوا في هذه المعركة: "كانت مجزرة بحق رفاقنا وأخوتنا، وحتى هذه اللحظة لا أعلم من اتخذ القرار ببدء المعارك ومن الذي اتخذ القرار في وقفها".

تشكل هذه الأسئلة هاجساً ومدخلاً مهماً في فهم آليات العمل العسكرية التي اعتمدتها الكثير من قوات المعارضة؛ كما تحمل في طياتها اتهاماً خطيراً يوجه إلى هذه القيادات العسكرية، ويعيد النظر في آليات اشتغال عمليات التمويل ودور المال السياسي في صنع قرارات قوى المعارضة.

أغلب الملاحظات التي تم جمعها تشير إلى أليات محددة يقوم عليها الدعم المالي، إذ لا بد من أن تثبت التشكيلات المقاتلة دورها في عمليات القتال كي تتمكن من الحصول على الدعم المطلوب، بالمختصر عليها أن تفتتح جبهات قتال كشرط للحصول على تمويلها؛ وهنا يلعب الاعلام دوراً حاسماً، إذ غالباً ما يترافق مع هذه العمليات تغطية إعلامية من كافة القنوات الفضائية، وهو ما يشجع الممولون على ارسال دعمهم المالي.

على هذه القاعدة يصبح من الممكن فهم كثرة اطلاق قادة المعارضة لمعارك وهمية "كمعركة ربيع المجاهدين، ومعركة جند الله ومعركة قادمون ووالخ" التي يضخمها الاعلام غالباً بينما هي على أرض الواقع فلا تعدو أن تكون أشبه ببروفا تنتهي حال أن تنتهي مهمتها الاعلامية.

هل من الممكن ان يكون هدف الحصول على تمويل هو الذي يقف خلف هذه العمليات العسكرية التي غالباً ما يدفع ضريبتها الشبان المقاتلون والذين تملؤهم الشجاعة والاندفاع؟ يقول أبو رامي وهو واحد من الاعلاميين

الذين شاركوا في تغطية معركة ربيع المجاهدين: "بعد هذه المعركة شعرنا جميعنا بالخذلان، إذ كيف لنا ان نفهم كيف اتخذ قرار بدء العمليات وقرار إنهائها بين ليلة وضحاها؟ كنا نحضر على جبهة حرستا، وفجأة اتخذ القرار بالبدء من جبهة عربين، ولم يكن المقاتلون يعرفون المنطقة والطرقات بدرجة كافية، وسقط العشرات منهم من دون ان نحرز أي تقدم يذكر.. كل هذا أثار لدينا شكوكاً حول جدية القيادات العسكرية في قيادة المعارك وجدواها". ويتابع ابو رامي بالقول: "أكثر من معركة خاضها الشبان ودفعوا ضريبتها غالياً ليكتشفوا فيما بعد أنها لم تكن سوى عبارة عن بروفا للحصول على التمويل. هذا ما حصل في نيسان الماضي عندما تقدمت بعض الكتائب للسيطرة على طريق حرستا الدولي، وسقط حوالي المائتي شهيد، وبعدها انسحبت القوات انسحاباً تكتيكياً"، يختم بسخرية مريرة.

عشرات الشواهد تشير إلى ان الحصول على التمويل كان يقف وراء عدد كبير من "المعارك"، وأن هذا الفساد الذي جلبه المال السياسي كان له دوراً حاسماً في قتل الروح الثورية لدى المقاتلين، وهو احد أهم الأسباب التي تقف خلف عدم تقدم قوات المعارضة باتجاه دمشق، فذلك يصبح وفق هذه المعادلة من آخر همومها، إذ يسود هنا منطق أمراء الحروب على منطق الثوار. فيصبح البحث عن "الغنائم" والحصول على التمويل هو شاغل هؤلاء "الأمراء"، والذين غالباً ما يكونوا خلف خطوط الجبهة في مأمن من نيران العدو.

ويبقى السؤال الذي يحتاج إلى إجابة: هل عدم اقتحام دمشق وإنهاء الصراع ناتج عن عجز قوى المعارضة وضعفها، ام ناتج عن غياب القرار السياسي الذي ترتهن له والذي لم يعطي التعليمات بعد ببدء هذا التقدم؟

تتمة : يبرود معركة النصر الضائع

فادي الداهوك

وتشير الأنباء الواردة من القلمون، أن وتيرة المعارك تغيّرت منذ أكثر ٢٤ ساعة، وانخفضت حدّة المواجهات إلى درجة أنها أصبحت مناوشات بالأسلحة الخفيفة والمتوسطة، بعدما تمكن

مقاتلو الجيش الحر والفصائل الإسلامية، من تأمين محور التقدم الرئيسي لقوات حزب الله، قرية السحل، وتلالها التي تشكل ثقلاً عسكرياً للجيش الحر، بشكل كامل.

انحسار المواجهات، بدأ من منطقة واسعة ومكشوفة على مناطق تمركز الجيش الحر، تمتد بين بلدات السحل وفليطة ورأس العين وبخمة والجبة وعسال الورد، وانتهى إلى مساحة أضيق.

لكن، ومع ذلك، واجهت قوات حزب الله، القوة الرئيسية التي اتخذت على عاتقها مسألة الاقتحام، صعوبة في إيجاد ثغرة تتقدم منها على محور قرية السحل، المجاورة للنبك، معقل قوات النظام وحزب الله ومركز الانطلاق نحو يبرود.

من جهة ثانية، لجأ النظام إلى محاولة، فشلت، في كسر السور الذي يحمي المنطقة، وذلك بمحاولة إشغال المقاتلين بالمدنيين، من خلال اعتماده على الغارات الجوية بطيران الميغ من ارتفاعات عالية، اقتصرت أضرارها على المادية في أغلب الأحيان.

كذلك، لجأ إلى القصف بواسطة المدفعية، وعلى وجه التحديد، مدفعية الحرس الجمهوري في اللواء ١٠٤، التي عاود استخدامها في القلمون، لأن معادلة البراميل المتفجرة كحل ناجع لإحداث أوسع تدمير، مثلما يحصل في الشمال السوري، والمناطق التي لا تملك مضادات للطيران، لا تنطبق صوابيتها في القلمون، وذلك لعدم امتلاكه ترف المحاولة والمغامرة بالاستخدام المريح للمجال الجوي، الذي حتماً هو في مرمى نيران المقاتلين في يبرود.

يضاف إلى ذلك، أن اللجوء إلى الاقتحام البري، أثبت فشله حتى الآن، وعلى ذلك تجربة مؤلمة، كلفت النظام وحزب الله حتى الساعات الأخيرة الماضية، ٥ دبابات على الأقل، تم تدميرها خلال الأيام التي حاول فيها النظام وحزب الله الاقتحام من جهة قرية السحل، ومزارع ريما، التي عدل عن فكرة استخدامها كممر للتقدم، بسبب تمركز قوات كبيرة فيها تابعة لجبهة النصرة، الفصيل المسلح الأكثر شراسة في مقارعة النظام.

وتبقى نسبة ثمانين في المئة، من السكان الذين نزحوا من يبرود، نحو عرسال اللبنانية، عاملاً رئيسياً في المعركة، أزاح حملاً ثقيلاً عن عاتق المقاتلين، وجعلهم يتفرغون للقتال فقط، والتخطيط في غرفة عمليات عسكرية وحيدة، مشتركة، تقود المعركة، ويرأسها ضباط عسكريون منشقون عن النظام.

بُنية الحرب وتعقيداتها

غازي دحمان

بكرّت الإطراف الدولية بدعوتها قيام مؤتمر لحل الأزمة السورية، لم يكن في الأفق علامات تشير إلى إمكانية إقلاع قطار التسوية من المحطة السويسرية. إن رغبة بعض الدول، لو افترضنا أنها موجودة، والتكتيكات السياسية التي تمارسها أطراف الصراع في إطار اللعبة السياسية، هي كلها مؤشرات لا تكفي لصناعة حل للازمة.

ليست الأطراف الحاضرة للمؤتمر هي التي تتحكم بساحة الصراع. تطورات الحرب حولتها إلى مجرد واجهات. هذا الأمر ينطبق على كل الأطراف المنخرطة بالأزمة، الداخلية منها والخارجية، فللحرب بنيتها الخاصة، والدافعة إلى استمرار عمل آلتها. هذه البنية موجودة في قلب النظام السوري، وفي قلب الثورة، وداخل وزارات الدفاع والحرب، ووزارات الخارجية لدى كل الدول.

للحرب أيضاً صيرورتها، وهي تصر على إكمالها، ليس للأمر علاقة بالحتميات ولا تنجيماً بالغيب، بل القضية لها علاقة ببنية تشكلت بحكم الأمر الواقع، وكنمط استجابة لظروف واقعية، ثم صارت بحكم الأمر الواقع أيضاً نظاماً متكاملاً، له مدخلاته ومخرجاته، وينطوي على مؤيديه الضامنين لاستمرارهم، كما ينطوي على نمط من العلاقات التي يصبح فصمها مستحيلاً.

يندرج الأمر أيضاً على البعد الإقليمي المحيط للحرب، والحاضن لها، وبخاصة في ظل وجود خريطة متشابكة ومعقدة، إثنياً وجغرافياً، كالخريطة التي ينطوي عليها المشهد السوري. إذ يتضح أن أول عنصر تضربه هذه الأزمة بتفاعلاتها وارتداداتها، هي الحدود، التي تتحول إلى حالة سائلة تتشكل على هامشها جملة من المصالح الجديدة تقوم على تهريب الأسلحة واللاجئين، كما هو حاصل الآن على حدود سوريا بإتجاهاتها المختلفة مع تركيا والعراق والأردن ولبنان، حيث تنمو في هذه المناطق وبحكم التمازج الديمغرافي وروابط القرابة والنسب على الحدود، شبكات من العلاقات ذات الطبيعة المتضاربة، والتي تتداخل فيها عوامل القرابة والمصلحة ناهيك عن إمكانية تعرض تلك المنظومة من العلاقات إلى أنواع من الاختراق الإستخباراتي، بمستوياته الإقليمية والدولية.

يحصل ذلك بالتزامن مع تضعضع المراكز الأساسية في الإقليم، جراء صدمة الحرب، ونتيجة انحراف بنية صناعة القرار في تلك المراكز عن مهمتها الرئيسية، وتحولها إلى طرف صراعي، استجابة لطبيعتها الأيديولوجية والإثنية في الغالب. وهو الأمر الذي يضيف تعقيدات على هذا النوع من الأزمات لا يلبث أن يندمج بها ويحولها إلى معطى ثابت ونهائي. ولعل المثال العراقي بهذا الخصوص الأكثر سطوعاً، حيث تندمج القيادة الوطنية العراقية في إطار مخطط مذهبي يكاد يطغى على البعد الوطني العراقي، مما يزيد من التعقيدات الإقليمية بزيادة منسوب الأبعاد اللاسياسية في الإشكالية القائمة ويعقد تالياً أدوات الحل وممكناته. ويكاد الأمر ذاته ينطبق على الأداء السياسي لنظام الحكم في سوريا، حيث كشفت الأزمة عن انحراف خطير باتجاه مذهبة الصراع، وإغراقه بالتعقيدات الما قبل دولتيه، وانخراط بنية صناعة القرار السوري في خضم الصراع المذهبي، رغم استمرار الخطاب القومي والحداثي، والذي لا يعدو كونه قشرة أزالتها السلوكيات المناقضة.

أيضاً، ولد اندراج الأزمة في السياق الدولي جملة من التعقيدات المتشابهة، إذ لم تقف القضية على تعميق خطوط الانقسام الدولي. تلك نتيجة، أما الواقع، فيتزامن مع تفجر الأزمة وتطورها في ظرف دولي منحرف، كان يبحث عن منابر يعبر من خلالها عن حالة الانحراف تلك وحالة الثورة على عالم القطبية الأوحد الذي فرضته أميركا على العالم عقب انتصارها على الشيوعية، وأرادت ان تحوله إلى معطى نهائي ونهاية للتاريخ. وفوق ذلك فقد تشكلت داخل تلك القوى بنى ومراكز لها علاقة بالأزمة السورية، ربما ليس بالتعيين الدقيق، سوريا الجغرافية والنظام السياسي، وإنما بوصفها حالة سياسية إستراتيجية، وبصفتها مختبراً لصراع القوى وفحص مديات القدرة وحدودها.

على هامش تلك التعقيدات السابقة، يجري طرح حل الأزمة السورية، من دون عناء محاولة تفكيك تلك التعقيدات التي تكتنفها تلك الشبكة، وهو ما يمكن تفسيره وفق احتمالين لا ثالث لهما.

الأول: أن جميع الأطراف الذاهبة للتفاوض إنما ذهبت لتستكشف مدى الوهن الذي أصاب الطرف الآخر، أو ما هي استعداداته للمرحلة المقبلة، وفي الحالتين، جاءت تلك الأطراف معتمرة خوذتها العسكرية وبالتالي تخلو جيوبها من أي مبادرة سياسية حقيقية.

الثاني: ان الحرب صارت فوق قدرة الأطراف على الحل. وبالتالي فإن كل طرف يذهب بقصد إجراء عملية تلاقح للمقاربات المختلفة، عسى أن ينتج عن ذلك مقاربة تضمن مصالح الأطراف كلها وتفتح نافذة للخروج من هذا الكباش الذي بات يهدد بالإنسحاب على ملفات دولية عديدة.

في كلا الحالتين، يظهر أن حل الأزمة لازال عجراً، لم ينضج بعد. ولازالت الأمور، رغم كارثيتها على الحيز السوري وقاطنيه، بحاجة لجولات أكثر سخونة، تكون كفيلة بإنضاج ثمرة الحل. وهنا ثمة سؤال يطرح نفسه بإلحاح، ترى ما هو النمط الصراعي المقدر أن تتخذه مسارات الأزمة لتهيئة الحل المطلوب وإعادة صياغة المشهد السوري بحيث يصبح قابلاً للاستثمار التفاوضي، أو لتوليد الحلول التي يرغب بها كل من طرفي الصراع، وبخاصة الأطراف الدولية الفاعلة والمؤثرة؟ لا شيء سوى إضافة مزيد من التفجير على مشهد متفجر أصلاً، هكذا يقول المنطق والخبرة التاريخية لمثل هذا النمط من الصراعات.

بين إجرام النظام السوري وتلكؤ العالم

تهامة الجندي

في الجولة الأولى من مفاوضات «جنيف٢»، قدّم وفد «الائتلاف» صور التعذيب الوحشي في السجون السورية، وفي الثانية عرض وثائق، تثبت علاقة النظامين السوري والإيراني بـ«داعش» و«القاعدة». وما من عاقل يشك، أن أجهزة الاستخبارات الغربية بمراصدها الجوية والبرية والبحرية، ورجالها المنتشرين في كل مكان من العالم، لم تكن قادرة على اكتشاف تلك الحقائق المروّعة قبل انعقاد المؤتمر. مع ذلك كانت المعلومات الواردة في الوثائق خطوة تكتيتية لافتة، استطاعت أن تحرّك الرأي العام العالمي، ولم تقدر أن تشكل ورقة ضغط على الجانب الآخر. وإذا كان وفد «الائتلاف» أبدى مرونة كبيرة في سلوكه التفاوضي، فلم تكن مرونة القادر على فرض التسوية، إنما مرونة العارف مسبقا بفشل المفاوضات.

في الجولتين تجاهل الوفد «الحكومي السوري» الوثائق، وأنكر ما بداخلها من معلومات ومسؤولية وتبعات، وألحّ على فتح ملف الإرهاب، قبل مناقشة تفاصيل هيئة الحكم الانتقالية، بينما استمرت البراميل المتفجّرة بالسقوط على رؤوس السوريين، وثلث المدنيين الذين تم إجلاءهم من حمص في الهدنة المزعومة، وقعوا رهن الاعتقال، وانتهت الجولة الثانية بتطويق يبرود، وهجرة معظم أهاليها صوب عرسال اللبنانية.

الروس الذين وعدوا بالضغط على النظام السوري من أجل التفاوض على تشكيل الحكومة الانتقالية، تراجعوا عن وعدهم، وعادوا إلى موقفهم السابق بعدم التدخل لإطاحة رأس النظام، فهذا شأن داخلي لن يحسم أمره سوى السوريين بأنفسهم، وإلى حينها سيستمرون بتقديم كل أشكال الدعم المادي والمعنوي للسلطة الشرعية، وسيرفعون الفيتو في مجلس الأمن لتعطيل أي قرار ملزم، من شأنه أن يلبي أيا من حق السوريين في أن يبقوا على قيد الحياة، ومن على قناة «الجزيرة» صرّح الصحفي الروسي المخضرم فاتيسلاف ماتوزوف: «تنحية الأسد عن السلطة مجرد أحلام»، وعلى قناة «العربية»، قال: «البراميل المتفجرة موضوع إعلامي».

أصدقاء الشعب السوري أدانوا بشدة الجرائم الواردة في الوثائق التي عرضها «الائتلاف»، واتهموا «الوفد الحكومي» بتعطيل المفاوضات، ونظام الأسد بمغناطيس الإرهاب، وراحوا يتشاورون فيما بينهم لإيجاد صيغة تقبل بها روسيا، من أجل الضغط على النظام السوري للوفاء بتعهداته في البت بتشكيل حكومة انتقالية بصلاحيات كاملة، بينما اكتشف الإبراهيمي أن الأزمة السورية في نفق مظلم، واعتذر من السوريين لفشل المفاوضات، في حين أوضح الممثل البريطاني الخاص بسوريا جون ويلكس، أن أهمية جنيف٢ تكمن في مد جسور الحوار بين كافة الأطراف السورية والإقليمية والدولية؟! وهو ما يمكن تسميته بسياسة النأي بالنفس، ووضع القضية السورية من جديد بين مطرقة الروس والسندان السوري، أي العودة بها إلى المربع الأول، وهو الحل العسكري، ما يستدعي طرح العديد من الأسئلة على كافة اللاعبين.

التتمة في الصفحة ٤

روسيا وخيارها العسكري في سوريا

سلام السعدي

على مدى جولتين باهتتين من التفاوض في جنيف، أثبت النظام السوري أنه حسم أمره في رفض أي حل سياسي. وتثبت "مسيرات التأييد" التي باتت تخرج في المناطق التي يسيطر عليها النظام، أن الرئيس الأسد، هو عقبة كأداء في وجه أي حل، إذ أنه سوف يقوم بترشيح نفسه للانتخابات الرئاسية المقبلة، منهياً بذلك أي أمل في قبول تسوية سياسية للحرب القائمة.

واجتاز النظام السوري عنق الزجاجة عام ٢٠١٢، وهو العام الذي شهد تصاعد الموجة الثورية في سوريا، وسيطرة قوات المعارضة على مناطق شاسعة من البلاد. حينها بدا النظام في لحظاته الأخيرة، وبدت أيام الأسد "معدودة"، لا بالنسبة إلى المتظاهرين والمقاتلين فحسب، بل بالنسبة لكبار قادة العالم أيضا. وإذ بالأيام تطول، وتمعن فتكا في أرواح السوريين، بصورة أشد إرهابا من تلك التي بدأت عليها عام ٢٠١١.

ويجد الأسد نفسه اليوم في وضع مثالي للغاية، مع تأخير متعمد في تسليم السلاح الكيماوي، فلا يزال له دور ما يلعبه. الأهم، هو ما أحدثه تدفق الدماء في شرايينه عبر ميليشيات حزب الله وإيران والعراق من تغيير في مجريات الصراع على الأرض. فعادت قواته إلى الهجوم بعد عام من الانكفاء، وأتت سياسة حصار المدن، بنتائج مبهرة وفق مقاييس الإجرام التي يعتمدها.

ولا يمكن لعين باحثة في التاريخ أن تحدد أية مدينة أو بلدة في العالم، تلك التي رزحت لنحو عامين، بصورة يومية ومن دون توقف، تحت وابل من القصف المدفعي والصاروخي. أية مدينة في هذا العالم الذي مزقته الحروب والصراعات، خضع المدنيون في داخلها لحصار متواصل تجاوز ستمئة يوم كما حصل في أحياء حمص القديمة.

قد لا يسعفنا التاريخ بجرائم إرهابية مماثلة تحدث على مدار الساعة، ويتعامل معها العالم "الحر" بمزيد من اللامبالاة كما يفعل اليوم. العالم يغط في سبات عميق، أما جيش الأسد المدجج بأعتى الأسلحة فلا ينام أبدا، وهو يواصل القتل بوتيرة متصاعدة.

أجبرت سياسة الحصار، عديد البلدات على عقد "هدنة" مع النظام، تصب بصورة أو بأخرى في صالحه. فـ"الهدنة" في جانب منها تشير إلى عجز قوات الأسد عن اقتحام البلدة وفرض السيطرة عليها، لكنها تسفر عن تحييد الجبهات واحدة بعد الأخرى عن القتال. حينها يتمكن النظام من تنفيذ إعادة انتشار لقواته، فيما يقبع مسلحو المعارضة في حصار محكم يمنعهم من تنفيذ إعادة انتشار مماثلة يدعمون بها الجبهات التي تتعرض لضغوط كبيرة، ومنها على سبيل المثال جبهة القلمون التي تخوض أشرس المعارك مع النظام وقوات حزب الله.

أما المعارضة السياسية والعسكرية فهي لا تكاد تخرج من مأزق، حتى تدخل في كارثة. فهي على الصعيد السياسي تقبع في حالة من الضعف والانقسام لتياراتها وكتلها. أما على المستوى العسكري، فتكاد الحرب بين فصائلها وخصوصاً ضد تنظيم "داعش"، تستنفد قواها. كل ذلك لا بد أنه يثير غبطة لدى النظام وحلفائه.

لا غرابة في أن يرفض النظام أي حل يفضي إلى تغيير السلطة والإطاحة برأسه. وفي حين لم تتردد إيران في أي يوم، في دعم خيارات النظام المتعنتة، كانت روسيا خلال التحضير لمؤتمر جنيف، تميل نحو إبداء نوع من التوازن. فامتنعت عن إطلاق تصريحات مباشرة داعمة للنظام يمكن أن تزيد من تصلبه، وهو ما فهم على أنه دعم للحل السياسي المأمول، والذي بات ناجزاً بتفاصيله بالتوافق مع الجانب الأميركي.

لكن صبر روسيا نفذ بسرعة فلم تحتمل قناع التوازن الذي ارتدته بحذر خلال مؤتمر جنيف، وما لبثت أن أزاحته عن وجهها في أعقاب المؤتمر، وعادت في خطابها الدبلوماسي وفي سلوكها إلى المربع الأول في دعم النظام، بل وحتى بشار الأسد نفسه. وقد عزز من النبرة الروسية الحادة، تصاعد التوتر المستجد بينها وبين أميركا وأوروبا على خلفية الاحتجاجات في أوكرانيا.

روسيا شاركت بجدية في التحضير لمؤتمر جنيف، لكنها كانت تراقب التطوّرات العسكرية على الأرض، وقد كانت خلال العام الأخير تصب في صالح حليفها، بل وساعدت في وصوله إلى هذه الوضعية المتماسكة. وما من شك، في أن قوة النظام وحلفائه الطائفيين، قد أسالت لعاب روسيا القيصرية، بصورة جعلتها مترددة في الضغط عليه لقبول الحل السياسي، إذ لا يمكن أن تتعامل مع حليفها كما لو أنه يعيش مرحلة انهيار كتلك التي عصفت به عام ٢٠١٢. هكذا بدت روسيا عقب مؤتمر جنيف وأثناء التحضير لمعركة "يبرود" في القلمون، أقرب لخيار النظام وإيران في الحل العسكري.

من المرجح أن نهاية الصراع في سوريا، ووفقاً لموازين القوى القائمة ستكون عبر الحل السياسي. ومن المرجح أن الظرف الدولي نضج بصورة ما للدفع بهذا الاتجاه. لكن المناكفات الروسية الأميركية، ودعم روسيا المطلق لمواقف النظام العدمية تماماً، ربما يفصح عن أن الظرف لم ينضج لتطبيق بنود «جنيف١»، وإنما لإطلاق عملية تفاوضية، أو مسار سياسي بشكل موازٍ للمسار العسكري على الأرض. ربما تؤمن روسيا، عكس النظام، بمسار سياسي. لكنها لا تؤمن بهذا المسار بمعزل عن المسار العسكري وإنما بالتوازي معه.

تتمة: بين اجرام النظام وتلكؤ العالم

تهامة الجندي

إذا كان تفجير سيارة مفخخة، أو عمل انتحاري في مكان آهل، يوقع عددا من القتلى والجرحى، هو إرهاب، فماذا نسمي البراميل المتفجّرة، واستخدام الأسلحة المحرّمة، القنص وتجويع المحاصرين، الإعدامات الميدانية والمجازر الجماعية، تخريب البنى التحتية، قصف المشافي والمدارس ودور العبادة، الخطف والقتل على الهوية؟ هذه ليست مجرد انتهاكات لحقوق الإنسان، وليست فقط جرائم حرب، هذا إرهاب منظم وممنهج ضد المدنيين العزل، ووفد النظام محق بأن «قوى الائتلاف» أو أية حكومة انتقالية، لن تستطيع وقف هذه الممارسات، فمحاربة الإرهاب هي مسؤولية دولية. إذن لماذا لا يتم فتح ملف الإرهاب تحت مظلة «هيئة الأمم المتحدة» والدول الكبرى، لتحديد مفهوم الجريمة الإرهابية، وإحالة المتورطين من كافة الأطراف المتحاربة إلى المحكمة، وإخراج جميع الإرهابين العرب والأجانب من سوريا؟

لماذا يوضع الملف السوري لدى الروس؟ مع أنهم أكثر ديبلوماسيي العالم جمودا وفشلا في العصر الحديث، فحين كان الاتحاد السوفياتي قوة عظمى، ومن خلفه تقف المنظومة الاشتراكية ودول عدم الانحياز، لم يستطع منع الجيش السوري من دخول لبنان، ولم يستطع الضغط على النظام السوري من أجل الإفراج عن شيوعي واحد من معتقلاته، لم يفعل شيئا من أجل حليفته الثورة الفلسطينية، قضى على الربيع التشيكي، دخل بجيوشه إلى أفغانستان وأخرجه «المجاهدون». اليوم ماذا ستفعل روسيا بعد أن لم يبقَ من قوتها الكثير، ولم تعد دولة متفوقة لا اقتصاديا ولا علميا، وهي لم تبدِ أي صدقية، ولا مرونة سياسية أو دبلوماسية في مواقفها أثناء المفاوضات والمشاورات مع جميع الدول، وكافة أطراف الصراع في سوريا؟ كيف ستملك مفاتيح الحل، ولماذا تورط النظام السوري بالمزيد من الدم؟

ثم لماذا الإصرار على تسمية ما يجري بـ«الأزمة السورية» أو الاقتتال الطائفي والأهلي؟! هذا شكل من أشكال التسويف والتضليل، الكل يعلم أن ثمة حرب طاحنة تدور رحاها على الأرض السورية، يشارك فيها مسلحون من كل أنحاء العالم، مسلحون ليس لهم صلة بثورة الشعب السوري وتطلعاته، وليس لهم علاقة بـ«الجيش الحر»، هدفهم تشويه الثورة السورية، وإطالة أمد الصراع الدموي، فالساحة السورية أضحت سوقا مغرية لتجار السلاح والدم من كل بقاع العالم، والغريب هنا أن كل الأطراف المتحاربة يتم تسليحها، عدا «الجيش الحر».

مشكلة المتظاهرين كانت الرصاص الذي يُفتح على صدورهم العارية أثناء احتجاجاتهم السلمية، وحين عصى الجنود الأوائل الأمر بإطلاق النار، وانشقوا عن الجيش النظامي، لم يرغبوا في إعلان الحرب عليه، قاموا فقط بحماية المتظاهرين، وتأمين حركة الإعلاميين المؤيدين للثورة، سوريين وعربا وأجانب، نقلوا الجرحى إلى المشافي الميدانية، ودفنوا القتلى، حموا الممتلكات من السرقات، وقاموا بتصفية «العواينة» أي جواسيس النظام. وبعملهم وأخلاقهم كسبوا محبة أهالي المناطق الثائرة ودعمهم، وكان ثمن هذه العلاقة قصفهم براجمات الصواريخ والطائرات، واتباع سياسة الحصار وقطع الإمدادات والخدمات، وتصاعد العنف أدى إلى انخراط المنشقين في كتائب وألوية شكلت نواة «الجيش الحر»، والمزيد من عنف النظام لإخماد جذوة التمرد دفع «المجلس الوطني السوري» إلى مطالبة المجتمع الدولي بتسليح «الجيش الحر»، وحظر الطيران الجوي.

قامت ألوية «الجيش الحر» بالإستيلاء على معظم المعابر الحدودية، ومناطق واسعة متاخمة للشريط الحدودي مع تركيا، تمهيدا لفرض الحظر الجوي، وتشكيل مناطق آمنة لخروج المدنيين النازحين، وتأمينهم داخل الأراضي السورية، وبعد مرور ثلاث سنوات على الثورة، لم يصدر قرار الحظر، ولم يجرِ تزويد ألوية «الحر» بمضادات الطائرات المتطورة، تُركت لحتفها في معركة طاحنة، مع خصمها التقليدي وخصومها المستجدين، وفيما كان الحوار يدور حول الحل السياسي، كانت المعارك تبتلع العباد والبلاد.

كل الوقائع تشير أن جيش النظام سيستمر بالحرب، وألوية الحر ستقاتل، حتى يقضي آخر جندي سوري، ولا يبقى على أرض المعركة سوى «القاعدة»، و«داعش» اللتان سوف تتناسلان تنظيمات جديدة وحروباً لا تنتهي. ومثل الكولا والجينز سوف يعبر الإرهاب الحدود والقارات، ويبتلع الشرق الأوسط بصيغته القديمة وحلته الجديدة، وحين يبدأ معركته في الدول الغربية، وتصبح الأمهات ثكالى والزوجات أرامل، سوف يهرول قادة الدول الكبرى، ويفكرون مليا بحل الأزمة السورية.

النظام عطل كل شيء لم يقم إلا بإلقاء البراميل على شعبه

الايكونومست- مركز الشرق العربي

عندما يبدو رجل بصبر وبراغماتية الأخضر الإبراهيمي، المبعوث الأمم الخاص إلى سوريا، قريبا من اليأس، فإن ذلك يعد بمثابة مؤشر لمدى السوء الذي وصلت إليه الأمور. لم يكن لدى أحد أية آمال كبيرة حول نجاح المحادثات في جنيف التي عقدت من أجل إيجاد تسوية للحرب الأهلية في سوريا. ولكن عندما انتهت الجولة الثانية من المحادثات في ١٥ فبراير مع عدم وجود أية خطط لاستئناف المحادثات، كانت الكآبة واضحة على محيا الجميع. ومع اعتذار السيد الإبراهيمي للشعب السوري لفشل إحراز أي تقدم حتى على صعيد المستوى الإنساني، بدأت الشكوك تتزايد في أن إدارة أوباما ربما تعيد التفكير أخيرا في استراتيجية الحد الأدنى في سياسة سوريا التي تتبعها.

مع رفض فريق تفاوض الأسد الدخول في محادثات حول إنشاء هيئة حكومية انتقالية (التي كان من المفروض أنها الهدف الرئيس للمؤتمر)، إضافة إلى دعم روسيا لتعنته، أكد ذلك حصول الأسوأ بالنسبة لوزير الخارجية الأمريكي جون كيري. سياسة أمريكا في التدخل المحدود في الأزمة السورية تركها دون أي رافعة أو نفوذ في هذا الصراع. مع استمرار دعم إيران وروسيا، ووجود معارضة منقسمة على نفسها وقوات معارضة غير مؤهلة، يعتقد بشار الأسد أن بإمكانه النجاة.

في ١٧ فبراير، كشف السيد كيري عن شيئ من إحباطه حينما قال :" النظام عطل كل شيء، ولم يقم بأي شيء عدا الاستمرار في إلقاء البراميل المتفجرة على شعبه والاستمرار في تدمير بلاده. ويؤسفني أن أقول إن النظام يقوم بذلك مع دعم متزايد من إيران وحزب الله وروسيا".

مدعوما من حزب الله، صعد جيش الأسد

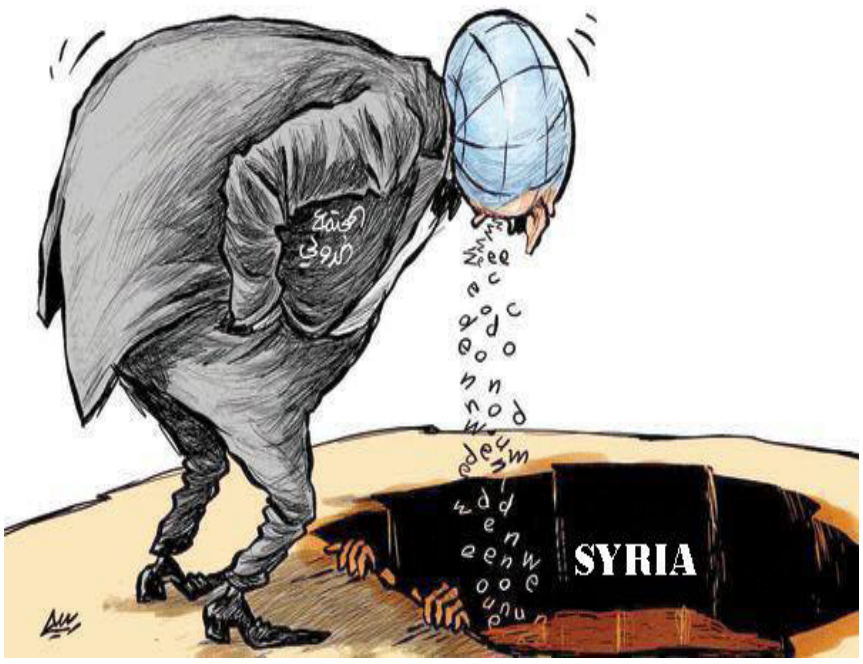

هجومه ضد القلمون ويبرود، بالقرب من الحدود مع لبنان. وأصبحت البراميل المتفجرة أفضل أسلحة الإرهاب لدى النظام. هذه البراميل عبارة عن حاويات نفط قديمة أو عبوات تخزين معدنية محشوة بالمتفجرات والوقود والخردة المعدنية يتم إلقاؤها من مرحيات (روسية الصنع) على المناطق المدنية الخاضعة لسيطرة المتمردين. بصورة بدائية وعشوائية، فإن هذه البراميل تنفجر عند الإرتطام وتدمر المباني وتقتل وتشوه الناس على مدى مساحة كبيرة. إحدى هذه البراميل سقطت في ١٨ فبراير بالقرب من مدرسة في قرية مزيريب جنوب دمشق مؤديا إلى قتل ١٨ شخص، ١٥ منهم من اللاجئين الفلسطينيين. استخدام هذه البراميل في حلب، إحدى أكبر مدن سوريا، أدى إلى إفراغ أحياء كاملة من سكانها.

عمال الإغاثة في الأمم المتحدة يقولون إن ما يقرب من ٥٠٠٠٠٠ شخص يائس فروا من حلب في الأسابيع الأخيرة، وتدفقوا إلى البلدات الصغيرة في الريف المحيط وعبروا الحدود إلى تركيا أو لبنان. استراتيجية الأسد يبدو أنها تهدف إلى إعادة السيطرة على هذه المناطق عن طريق إفراغ السكان الذين يعيشون هناك.

السيد الأسد يحاول أيضا ضمان أن الدول الغربية ترى أنه لاعب أساسي لمستقبل بلاده. يعتقد الدبلوماسيون إن تأجيله شحن الأسلحة الكيماوية خارج البلاد، الأمر الذي تم الاتفاق عليه في شهر سبتمبر الماضي، ما هو إلا طريقة منه لضمان أنه سوف يحتفظ بدوره. كما أنه يريد إقناع الغرب بأن نظامه هو الشريك الوحيد القادر على التعامل مع الميليشيات المرتبطة بالقاعدة في سوريا.

يبدو أن الغرب أقل رغبة في قبول مثل هذا الأمر مما كان عليه قبل شهر تقريبا. تصميم السيد كيري الواضح على إقناع السيد باراك أوباما على لعب دور أكثر نشاطا تأكد في الاجتماع الذي تم في واشنطن دي سي والذي حضره رؤساء مخابرات من تحالف الدول الصديقة لسوريا، الذين يرغبون في تنحي السيد الأسد. مسئولو المخابرات من فرنسا وبريطانيا والسعودية وتركيا وقطر والإمارات وآخرين خرجوا بنتيجة مفادها أن الدبلوماسية سوف تكون غير مجدية حتى تتراجع ثقة الأسد في إمكانية الحسم العسكري.

من أجل الوصول إلى تلك النتيجة، حصل هناك الكثيرمن الجدل حول كيفية تقديم الأسلحة الفتاكة للمجوعات المتمردة التي تشمل أسلحة ثقيلة وصواريخ مضادة للطيران محمولة على الكتف والتي تعرف باسم "مان بادز".

هناك حاجة إلى المان بادز من أجل إسقاط مروحيات النظام، ولكن أمريكا رفضت إرسال أي منها إلى سوريا خوفا من أن تقع في نهاية الأمر في أيدي المتمردين التابعين للقاعدة. في محاولة لإقناعهم بأن ذلك لن يحدث، غير الجيش السوري الحر المدعوم غربيا رئيس هيئة أركانه الجنرال سليم إدريس، في ١٦ فبراير، بسبب فشله المزعوم في توحيد مجموعات المتمردين وإنشاء قناة موثوقة لتوزيع السلاح.

هل السيد أوباما فعلا على وشك إطلاق غضبه للتدخل بطريقة يمكن أن تغير التوازن العسكري وتقنع الأسد وداعميه أنهم تحت التهديد؟ الوعود الماضية لم تأت بأي نتيجة. ولكن بعد تحطم قطار الدبلوماسية في جنيف، يقال إن السيد أوباما يريد من السيد كيري ومستشاريه العسكريين أن يأتوا بشيء أكثر جرأة. ربما فشل السياسة الذريع يمكن أن يركز العقل.

حسين حمزة: أكتُبْ أنا يائس

راشد عيسى الخميس

أمس مات شاعر من حوران. كان لا بد من قول ذلك في بلد أقسم نظامه أن يحوّل "أم الفقير"- حوران تلك إلى حقل بطاطا، الحقل الذي أنجب صوتاً لا يمكن لسوري أن ينساه، إن كان سورياً بحق. صوت من أيام الأبيض والأسود التلفزيونية، حين كان الناس يشاهدون مسلسلاً اسمه "حارة القصر" من أجل أن يقفوا عند تلك المقاطع التي يرويها حسين حمزة بصوته الأخاذ.

موته أيقظ صوتاً بعيداً لطالما تردّد في أرجاء البلاد، في هذه الدراما أو تلك، في هذه الأغنية أو تلك. "تعب المشوار" أشهر أغانيه التي لحّنها عبد الفتاح سكر وغنّاها الراحل فؤاد غازي. كلماته غنّاها كثر، كأغنية وديع الصافي التي يقول فيها "من هون نحنا يا بشر من هون/ من قصة عمر/ من بَسمة الإيام للأيام/ من صوت بيجيه البكي ع البال/ من كوخ من عرزال/ من موال/ من دالية وعنقود/ من توتة/ من غيمة بلادي المطر...".

كما أن موته كشف عن أغنيات أخرى كالتي غنّتها السورية ديمة أورشو، ولحّنها عازف البيانو غزوان زركلي، وتقول كلماتها "أنا من همّ الحصادين/ من المعول من حد المنجل/ من بيدر عاصر تاريخ القمح وبعدو بيعطي غلال/ من العنقود العم تحضن حباته سلال/ من الكرم الواقف ناطور ومتل المارد/ واقف شاهد نسر و جنحه مغطي الشمس/ مفيي زهور الوادي بفيّو وزندو واعد".

ولد حسين حمزة في درعا- كفر شمس ١٩٤٠، وهو فنّان تشكيلي إلى جانب كونه شاعراً. وقد تحدّث الفنان التشكيلي عصام درويش لـ"المدن" عن تجربته التشكيلية بالقول: "كرسام اعتمد على تقنية التطبيع في لوحات صوّرت مشاهد من الطبيعة في أجواء خيالية تقترب من المفاهيم السريالية".

مصادر المعلومات عن الشاعر السوري كانت شحيحة للغاية. حتى البحث عن صور له، غير تلك التي نستقيها من فيديو، بدا جهداً عبثياً. هو الغائب عن الإعلام من أكثر من عشر سنوات، إلى حدّ أن الناشر والصحافي سعيد البرغوثي قال إنه طلب مرة أن يجري مقابلة صحافية معه فرفض حمزة قائلاً: "اكتب أنا يائس". لكن درويش حاول أن يوجز حياته، فقال: "حسين حمزة كان مساعداً في الجيش العربي السوري، وفي الحرب فقد كليته، ثم ترفّع كضابط وسرّح من الجيش. عمل في الهيئة العامة للإذاعة والتلفزيون. عمل في الفن التشكيلي كرسّام وكمسوّق للأعمال الفنية، وأقام الكثير من المعارض الفنية. ثم أصبح منذ سنوات مقيماً في بيته في العاصمة دمشق، ثم غادر أثناء المأساة السورية مع ابنه إلى الإمارات حيث توفي".

المخرج هيثم حقي كتب على صفحته في فايسبوك يقول: "وداعاً لشاعر العامية الكبير الصديق حسين حمزة الذي كتب لي أغنية شارة مسلسل "هجرة القلوب إلى القلوب" المعروفة: "ولاد الأرض السمرة، ضحكتهن فوّارة تطليعتهن حرّة وجبهاتن منارة". ويضيف حقي: "كما كتب في أول تعاون بيننا أغاني فيلمي الطويل "ملابسات حادثة عادية". وتحدّث حقي لـ"المدن" قائلاً: "لا أعرف كيف أعبّر عن حزني برحيل أشخاص جمعتني بهم صحبة العمل أو الحياة وعجزي عن القيام بواجب العزاء لهم ولذويهم. بالطبع المأساة السورية أعمق من هذا بكثير، لكن مجرّد خبر وفاة كهذا يعيد شريط الراحلين ويوصلني إلى كل الأصدقاء والأحبّة الذين مرّت سنين دون أن أراهم. ولن أراهم إطلاقاً بعد اليوم".

في خضم الثورة السورية لا شك أن سؤالنا الأول سيكون إن كان الرجل مع الثورة في بلده أم لا، خصوصاً إزاء التخاذل الهائل للمثقفين، صمتاً أو تواطؤاً، ليس لدينا إشارات واضحة حول موقف الشاعر سوى أن وكالة الأنباء السورية الرسمية "سانا" لم تنعه حتى الساعة، ما يجعلنا أقرب إلى الاعتقاد بأن الشاعر الراحل كان مناصراً للثورة. لكن أصدقاء مقرّبين سرعان ما يؤكدون ذلك أيضاً.

كذلك يروي صديقه الشاعر جبران سعد كيف جاءه ذات مرة اتصال من الإذاعة الرسمية يطلب منه تصريحاً بخصوص "الحركة التصحيحية"، فاغتنمها فرصة وراح يقرأ من شعره على الهاتف "شو يا دار، شو يا دار، منزرع ورد بيطلع صَبّار"، فارتبكت المذيعة وأقفلت الخط متذرعة بسوء الاتصال. بعدها، يقول سعد: "صدرت كما العادة القرارات بتهميشه وتغييبه وإرسال من يزعجه".

إلى جانب غيابه عن الحضور الإعلامي، لم يكترث حسين حمزة لأن يجمع أشعاره في كتب، بقيت قصائده إما ألحاناً مغنّاة، أو أنها بصوته منثورة في هذا المسلسل أو ذاك. كأن حمزة يصرّ أن يبقى صوتاً وحسب، الصوت الذي يأتي في آخر الدراما، فيختصر الحكاية كلها.

لا سكاكين في مطابخ هذه المدينة» رواية خالد خليفة

عبد السلام الشبلي

«لموت بطيء في زواريب حلب

بعد أن لفت الأنظار إليه، من خلال روايته «مديح الكراهية»، التي وصلت إلى القائمة القصيرة، للجائزة العالمية للرواية العربية «بوكر» عام ٢٠٠٨، يعود الروائي السوري خالد خليفة ، ليأخذ مكانه مجدداً في هذه القائمة عن روايته «لا سكاكين في مطابخ هذه المدينة»، التي صدرت أواخر العام الماضي بالقاهرة، عن «دار العين» للنشر، بسبب منعها في سوريا.

يدخلنا خليفة في أجواء روايته سريعا، من خلال الأسطر البارزة على صفحة الغلاف الأخير: «لا سكاكين في مطابخ هذه المدينة» ليست مجرد رواية، بل حفر عميق في آليات الخوف والتفكك خلال نصف قرن، كما هي رواية مجتمع عاش بشكل متواز مع البطش والرغبات المقتولة، عبر سيرة عائلة اكتشفت أن كل أحلامها ماتت، وتحولت إلى ركام كما تحولت جثة الأم إلى خردة يجب التخلص منها ليستمر الآخرون في العيش».

تشي الرواية، منذ سطورها الأولى، بتراجيديا موت بطيء ومديد يتنقل بزواريب حلب - المدينة الأبرز في الرواية والتي تحولت، بعد أن غزاها العسكر القادم من القرى، إلى مدينة ضائعة الملامح، مسفوكة التاريخ، يقف سكانها على أطلال الحياة، مستمرين في برزخ الواقع، الذي فرضه على كل سوريا القائد الرمز، الذي مات مع أول أسطر الرواية.

إلا أن موته لم يعف من الغوص في بواطن المدينة، التي أصبحت بلا هوية، بعد أن اغتالها الخوف، إثر قيام انقلاب ١٩٦٣ في سوريا، المصادف لولادة راوي القصة، وأصغر أفراد العائلة، التي تتمحور فيها شخصيات الرواية.

من فعل ذلك بحلب؟

حلب ومصيرها هما مثال لسيرة وطن كامل اسمه سوريا. شخصيات الرواية هم مواطنو البلد الذي اختنق بعفن العسكر، وتموهت معالمه كما هي بزاتهم الموهة، التي لوثوا فيها نقاء البلاد، بخضارها وصحرائها وأرواح أبنائها. حلب مكان الحدث، وموضع التساؤل عن القاتل والجريمة، والجلاد والضحية، في سجال طويل، وتقاطع في أفكار الشخصيات المتناثرة على صفحات الرواية، المصابة بالكثير من الأرق والانحلال، والذي يخفي خيبة كبيرة وضياع لأحلام ماتت مع بروز العسكر.

شخصيات تتداخل بصراع طويل، ربما لا يظهر في الكثير من مواضع الرواية، لكنه حاضر في أهداف كل فرد من العائلة، بما يرسم إمكانية الصدام في أي لحظة بين الأطراف. «فسوسن» التائهة بين حاضرها وماضيها، الغارقة بسوء الفعل الذي أودى بها للشك المستمر، في إمكانية عودتها لما رسمه لها خيالها الطفولي، والضائعة خارج حلب وداخلها. و«الخال نزار» الواهم بالتأقلم مع مثليته، المنبوذ من مجتمعه الأسري، الضائع في رحلته مع القدر، الذي فرض عليه أن يخضع لأشخاص، امتلأت حياتهم بالعبث والأخطاء. و« منذر» بقايا الجنرال، يحمل ما زرع فيه من سخافة القوة السلطوية، والهارب من حلمه العسكري إلى العمل مع أحد مبعدي النظام البعثي عن امتسازات استباحة السلطة داخل البلاد. أيضاً هناك «رشيد» الساعي إلى الموت أينما كان كملاذ أخير لإعطاء المعنى الحقيقي للحياة. و«جان» القادم من أوروبا المنفتحة، إلى حلب المتقوقعة في خوفها، ما يضطره لحبس نفسه، بعيدا عن رائحة الخراب العفنة، في المدينة الثكلى بموت رونقها السابق للحزب.

ما يجمع هذه الشخصيات هو تمردها على ذاتها وعلى ما حولها، انحيازاً إلى شغفها بتحقيق بقايا الأحلام المهددة بالتبدد والضياع، مع انصرام جل العمر، من دون تحقيق شيء منها. شخصيات تختبئ وراء المظاهر، وتقديسها أسرياً لإخفاء العيوب و المثالب، التي أصابت العائلة الهشة.. في مقاربة تدل على اختفاء البلد كاملا وراء تلك المظاهر، إن في الحب أو الوحدة أو في أسباب الوئام، إخفاء لتشتت وضياع مجتمعي، نتيجة ما زرعه الحزب والقائد في النفوس وفي العمران.

ربما لهذا السبب، يُبرز خليفة في روايته اللحظات الجنسية، ويوليها مكانة بارزة، ملاحقاً الرغبات الجامحة لأبطال الرواية. تلك الرغبات الطالعة من حافز الهروب من أسر الروح والفكر إلى تحرر الجسد، فتنغمس في تجارب تتجاوز أحياناً حدود المعقول لتصل إلى نوع من الرغبة المنحرفة تماما، مثل مشاركة سوسن لزوجين في ممارسة الجنس، أو مثل حالة نزار الذي يصير عاشقاً للرجال.

يكشف خليفة أعراض الطائفية المتنامية في المجتمع، على نحو مقتضب، بتلميحات وجمل قصيرة، لكن كافية لترسم واقع الخوف من الإعتراف بهذا الواقع، في ظل سوريا الحزب الواحد والسلطة المستبدة، القائمة على أساس طائفي مخفي. تلك الطائفية التي دمرت علاقات كاملة في الرواية، ورسمت صورة المجتمع المحكوم بالرعب من العلنية ومن السؤال الديني في الهوية.

في المحصلة، تتهافت الأوهام ويظهر الواقع، وتتكشف الحقائق. تفرّ الشخصيات من ذاتها إلى حياة أخرى، بقصص جديدة تخترعها أملا بالنجاة من الماضي. فسوسن تزور مسقط رأسها وتعيش قصة حياة جديدة، ورشيد يتخلى عن الدين الذي تطرف من أجل دوما، ليصل إلى النجاة من الموت والخروج من الأسر. نزار يطرد آخر أخطاء حياته، ويقرر أن يعيش وحيدا مع مقطوعاته الموسيقية.

هكذا، يعود أفراد العائلة للتجمع مرة أخرى خلف هدف واحد، هو النسيان.

« لا سكاكين في مطابخ هذه المدينة » حازت جائزة نجيب محفوظ عام ٢٠١٣، لكنها كسابقتها « مديح الكراهية» التي نشرت قبل ٥ أعوام، ممنوعة من الدخول إلى سوريا، البلد الثائر.

روسيا.. ما فرق أوكرانيا عن سوريا؟

طارق الحميد

أول سؤال يتبادر للذهن حول الأزمة الأوكرانية، وانتصار المعارضة هناك للآن، وخلع الرئيس فيكتور يانكوفيتش، هو: لماذا ارتبك الروس في أوكرانيا، منطقة نفوذهم، بينما يتصلبون في سوريا، خصوصا وأن الأحداث بسوريا وأوكرانيا، وإن اختلفت تفاصيلها، فإنها لا تفرق في البعد والمضمون؟

في سوريا بدأت الثورة سلمية، ودفع النظام المعارضة لحمل السلاح بعد ارتكاب المجازر، وباقي القصة معروف، حيث تم ويتم كل ذلك بدعم من الإيرانيين والروس. في أوكرانيا كانت الأزمة بمثابة النار تحت الرماد إلى أن تحركت المعارضة قبل ثلاثة أشهر لإخراج أوكرانيا مرة أخرى من تحت مظلة النفوذ الروسي، والارتباط أكثر بالاتحاد الأوروبي، وحصلت أعمال عنف قبل أيام بالعاصمة الأوكرانية، ووقع قتلى، وعلى أثر ذلك تحرك الأوروبيون، ومعهم الأميركيون بجهود محدودة، وتم التوصل لاتفاق بموجبه خلع البرلمان الرئيس، وتمت الدعوة لانتخابات مبكرة، وأطلق سراح رئيسة الوزراء السابقة، والأحداث لا تزال متوالية هناك.

وعليه فإن السؤال هو: لماذا ارتبك الروس بأوكرانيا، منطقة نفوذهم، وفي ثلاثة أشهر، بينما يصمدون في دعم الأسد لمدة ثلاثة أعوام؟ أفضل إجابة سمعتها هي أن الروس لا يستطيعون الصمود والتأثير وحدهم، فقوتهم تكمن باستخدام آخرين يقومون بمعارك النفوذ نيابة عنهم، حيث فشل الروس وحدهم مثلا في أفغانستان، وتخبطوا في الشيشان، وها هم يتخبطون في أوكرانيا، وليس لديهم من حل إلا استخدام القوة هناك، وهو ما يستبعده وزير الخارجية البريطاني. بينما في سوريا الأمر مختلف حيث يستخدم الروس الإيرانيين، ومعهم الميليشيات الشيعية، للدفاع عن الأسد، وبالتالي تعزيز أوراق نفوذهم أمام الغرب، وتحديدا أميركا.

والأمر الآخر الذي يفسر لنا فشل الروس للحظة بإنقاذ حلفائهم بأوكرانيا، وكما يفعلون مع الأسد، هو أن الأوروبيين هم من اضطلعوا بالدور الرئيس من أجل التوصل للاتفاق الذي جرى بالعاصمة الأوكرانية، والذي غاب عن حضوره الروس، فما يحدث في أوكرانيا يمس أوروبا أكثر من الأميركيين الذين يتولون بدورهم دور رعاية التفاوض مع الروس حول سوريا. ومن هنا يتضح أن الدور الأوروبي في التصدي للروس بأوكرانيا هو أكثر فاعلية من الدور الأميركي، مثلا، في سوريا، وليس لأن الأوروبيين يستشعرون خطورة حدوث كارثة جديدة في جغرافيتهم وحسب، بل ولأن الأوروبيين أكثر وعيا وجدية من الإدارة الأميركية الحالية في التعامل مع الأزمات، وكيفية معالجتها، وهذا ما اتضح جليا في سوريا حين كان الأوروبيون متقدمين بمواقفهم هناك على الأميركيين قبل أن يتراجع الأوروبيون بسبب مواقف أميركا المترددة في سوريا، خصوصا وأن الشرق الأوسط منطقة نفوذ أميركي لا أوروبي، بينما في أوكرانيا تصرف الأوروبيون بحزم لأن الأحداث تمس أمنهم القومي، ومثلما فعل السعوديون والخليجيون بالبحرين واليمن، وكما فعل السعوديون والإماراتيون مع مصر! ولذا فمن يعتبر من ارتباك روسيا بأوكرانيا مقارنة بسوريا، ومن يعتبر من فارق الموقف الأوروبي هناك مقارنة بالموقف الأميركي في سوريا؟ أعتقد أن المقارنة تستحق الكثير من التأمل.

اليرموك ، عندما تولد لاجئاً

راشد عيسى

من حفلات فرقة "راست"

سبعة شهور فقط عاشتها الشابة البريطانية إيميلي تشرشل في مخيم اليرموك العام ٢٠٠٩، أثمرت لديها اليوم أغنيات تروي مأساة المخيم. هذه واحدة من أغنيات فرقة "راست" التي تغني معها ايميلي برفقة باسل زراع، زوجها الذي تعرفت إليه أثناء إقامتها في المخيم، ثم انضما معاً للفرقة في بريطانيا.

تروي الأغنية، التي تحمل اسم "اليرموك، عندما تولد لاجئاً"، وتؤدّى بالانجليزية تتخللها مقاطع بالعربية، أحوال الناس الذين كانوا يفتحون أبوابهم للجميع، "حيث الأم التي كانت تطبخ بشكل مضاعف احتياطاً لقدوم أي ضيف. إنها الآن تقوم فقط بخلط الماء مع البهار، وترى أطفالها وهم يفقدون وزنهم". عندما تولد لاجئاً، تقول الأغنية،"تبني حياتك على لا شيء، فقط غرفة صغيرة، ثم منزل صغير، وأحياناً دكان صغير". ثم تصل إلى القول "لكنهم أحرقوا كل شيء الآن. عندما تولد لاجئاً، تولد وتعلم تماماً ما معنى النجاة، تطعم ابنتك وتقويها، وتغني لها أغنية، لكنك الآن لست قادراً على النظر في وجهها". وتختتم الأغنية بوصف استقبال المخيم للاجئين الجدد، ثم كيف تلقى "هديته" من السماء قصفاً من طائرات الجيش. ليصبح مخيم اليرموك أخيراً صورة على شاشة التلفزيون.

تشرشل قالت لـ"المدن" عن علاقتها بمخيم اليرموك: "أنا عشت في المخيم العام ٢٠٠٩ حين جئت إلى دمشق لتعلم اللغة العربية، وتعرفت إلى باسل زراع في تلك الفترة، ثم انتقلت إلى المخيم لأعيش معه هناك، سبعة أشهر، وأقمنا حفلة زفافنا في صالة من صالات المخيم".

وتروي إيميلي: "بالنسبة إلي، المخيم مكان مليء بالحياة والقصص، كان تجربة جديدة كلياً. الآن عندي أصدقاء وأقارب من المخيم، وأنا بالتأكيد أحزن لحزنهم وأفرح لفرحهم. ذاكرتي المرتبطة بالمخيم هي عبارة عن صور لأناس يحبون أن يساعدوا ويعطوا، أما الآن فكل الصور التي تخرج من المخيم موجعة وصادمة، حيث البيوت المهدمة وصور الناس التي تموت من الجوع".

وعن مسيرة أغنية "اليرموك"، تقول إيميلي: "حين كتبنا الأغنية، حاولنا أن ننقل جزءاً بسيطاً مما يحدث في هذا المكان، وأن نقول لأهالي المخيم إن أحاسيسنا وأفكارنا معكم، رغم البُعد". وتضيف: "في البداية، أنا وباسل كتبنا الكلمات واللحن، ثم عملنا على توزيعها على الآلات مع باقي الفرقة". أما لماذا هي باللغة الانكليزية، فتقول المغنية الشابة: "لأنها موجهة إلى الناس في بريطانيا والغرب عموماً لمحاولة رفع مستوى الوعي وتسليط الضوء على ما يحصل في مخيم اليرموك".

الأغنية ما زالت حتى الساعة تأخذ طريقها إلى الجمهور عبر قنوات "فايسبوك" و"تويتر"، وتقول إيميلي: "ساعدنا أصدقاؤنا في نشرها. رد الفعل كان جيداً، إذ تلقينا رسائل عديدة عبر صفحة الفرقة، تعبّر عن تعاطفها مع ما يحدث في مخيم اليرموك، فيما يقوم الآن صديقنا رامي عباس بالتحضير لعمل فيديو للأغنية لنتمكن من نشرها عبر يوتيوب، لأن ما يهمنا هو أن يصل صوت المخيم إلى كل مكان وبكل اللغات والوسائل".

وعن فرقة "راست"، تقول ايميلي: "فيها سبعة موسيقيين: كريم و باسل من مصر، جوان من البرتغال، باول من بارغواي، باسل زراع فلسطيني من مخيم اليرموك، إيما من ايرلندا، وأنا من بريطانيا، حيث يقيم الجميع. انضممنا، باسل وأنا، إلى الفرقة قبل سنتين، وسجّلنا معاً أربع أغنيات حتى الآن من ضمنهم أغنية اليرموك".

وبحسب ايميلي تشرشل، "ليس للفرقة توجه محدد، لكننا نشارك في نشاطات كثيرة تحصل في بريطانيا لدعم القضية الفلسطينية. نحاول أن نوصل أفكارنا من خلال الموسيقى، تحدثنا عن المهاجرين من خلال أغنية كتبتُها بعنوان "مهاجرة"، كما سجّلنا أغنية مع صديق لنا من الولايات المتحدة عن الجدار في فلسطين وعن قرية نعلين والتظاهرات التي تحصل كل جمعة في هذه القرية منذ سنوات. وما زلنا نحاول أن نقدم أكثر".

أجمل ما في أغنية "اليرموك" أنها أغنية خافتة الصوت، لم تحاول أن تكون مثل "مارش عسكري"، ولا أن تقرع طبول الحرب. إنها تفعل ما على الأغنية أن تفعله، فمع أنها عن مخيم مهدم يعاني التجويع والحصار والقصف، إلا أنها بقيت بوحاً شفيفاً وحزيناً يمتلئ بالأسف، لن تسمع فيه أبداً صوتاً للقصف.

هنا «الدرباسية» :
دكّان حوّاس لتصليح الأحذية وبيع السندويشات

هوشنك أوسي

إلى الغرب منها، مدينة سريه كانيه (رأس العين) التي يعتبرها العديد من المؤرّخين عاصمة المملكة الهوريّة - الميتانيّة قبل ٤-٥ آلاف سنة، وكثُر الحديث عنها في الأشهر الماضية نتيجة هجمات المجموعات الإرهابيّة التكفيريّة عليها وصراعها مع المقاتلين الكرد. وإلى الشرق منها، مدينة عامودا المعرفة بشعرائها ومجانينها وحريق سينماها الذي التهم أرواح أكثر من ٢٥٠ طفلاً، مطلع الستينات. يمينها، قرية «تل أيلول»، ويسارها قرية «جطال» وتشطرها الحدود التركيّة - السوريّة إلى شطرين.

إنها بلدة الدرباسيّة التي فتحت عينيّ فيها على الدنيا سنة ١٩٧٦. وبما أن لكل قرية أو مدينة أو دولة، رموزها الثقافيّة والاجتماعيّة والسياسيّة، كذلك الدرباسيّة، حيث يبلغ عدد الوجوه الاجتماعيّة - الشعبيّة فيها أضعاف الوجوه الثقافيّة والسياسيّة. وعلى سبيل الذكر لا الحصر: ملا حسن حسيني، ملا تمرهندي، ملا دندك، حج بوجو، ملا حمادي، ملا باجاري، ملا كنّم، صوفي سمّك، صوفي نزيرو، صوفي رسيني، خليل رزو، آحو، صوفي كزاني، شيخو رهوانو، حجي شينو، جمهورو، يوسفي وحمادي، ملفونو، فرمو حنا، مرقص زوقي، سعدو مسعي، سعيد جري، أبو غارو، سعيد توما، اسحاق عبدو، الاستاذ ملك بحّو، الاستاذ كمال كوركيس، موسى آدميه، عزو أرزاني، ساعي البريد أبو آرمين، الأستاذ كنوشيه، المختار عبدالقادر... وهنالك المئات من الأسماء التي لا تتسع هذه المقالة لذكرها، وتجربة كل شخص من هؤلاء وقصّته، تصلح لأن تكون مشروع رواية، ضمن ذلك الفضاء الاجتماعي الموزاييكي - التنوّعي إثنيّاً وقوميّاً ودينيّاً الذي كان اسمه «الدرباسيّة». ولعل من الشخصيّات الظريفة وخفيفة الظلّ، والمعروفة في الدرباسيّة، العم حوّاس عزالدين، الإسكافي وبائع سندويشات الفلافل والمقالي.

في زقاق معتّم، إلى جانب محلّ صبري سمّك لبيع الدهانات والزجاج وصكّ المفاتيح، وقبالة محلّ مصطفى البالاجي لبيع الثياب المستعملة، لا زال حانوت العم حواس عزالدين موجوداً، كشاهد على الكثير من الذكريات. هذا الدكّان الصغير نسبيّاً، يمكن ان تعثر فيه على كل شيء، مكدّساً على الرفوف. وكتعبير عن روحه الكوميديّة المرحة، علّق العم حوّاس على باب دكّانه كرتونة مكتوب عليها: «أطلب ما تريد من أبو وليد»، وكرتونة أخرى مكتوب عليها، موجّهاً الكلام لزبائنه: «أنا موجود في قهوة حمدو» أثناء غيابه عن المحلّ. بينما كتب على الباب القديم الذي نخره الصدأ: «لتصليح دواليب البشر»، في إشارة منه إلى أنه إسكافي. وتشبيهه الأحذية بالدواليب، يعني أنه يعتبر البشر عربات أو سيّارات، تعبر هذه الحياة، مصيرها التلف والحاجة إلى الصيانة وقطع الغيار.

هذا الحانوت المظلم، الذي كان ينيره مصباح كهربائي واحد (لمبة نيون) حين كنا ندخله، لتصليح حذاء، نجد العم حوّاس ينفض يديه من قلي البطاطا أو الفلافل، أو من لفّ سندويش لزبون آخر، ثم يتجه لفحص الحذاء لمعرفة «دائه» كي يصف له الدواء، ويطلب من الزبون أن يذهب لقضاء جولة عدّة ساعات في الدرباسيّة محدداً له الاتجاه، وبعد انتهاء الجولة، يأتي لأخذ الحذاء، معافى من «علّته» وقد شفي تماماً. وأحياناً، حين كنّا ندخل عليه، لشراء سندويش، نراه ينفض يديه من أحد الاحذية كي يلفّ لنا السندويش بمهارة. ولأن «سندويشاته» كانت لذيذة، لم نكن نكترث بأن اليد التي كانت قبل قليل تصلح الحذاء، هي نفسها التي لفّت السندويش! ونظراً لضيق الحانوت، لم يكن هنالك مساحة لماكينة خياطة الأحذية. وعليه، كان يكتفي حوّاس بالمطرقة والسندان والمسامير، والمواد اللاصقة التي يستعملها أي إسكافي.

التتمة في الصفحة ٨

حانوت الدنيا

تتمة :هنا «الدرباسية»: دكّان حوّاس لتصليح الأحذية وبيع السندويشات

هوشنك أوسي

الزقاق الذي يقع فيه حانوت عمو حوّاس، لطالما كنّا نستخدمه في الإفلات والهرب من المسيرات التي كانت المدرسة تجبرنا على الخروج فيها للاحتفال بمناسبات حزب البعث. فحين كانت المسيرة تمرّ من الشارع الذي يتفرّع منه الزقاق، كنّا نلوذ بالفرار من المسيرة، بعد التأكد من أن أعين «العسس» و«الوشاة» من عناصر الشبيبة والحزب ضمن الطلبة، لم تلمحنا. زد على ذلك أن هذه العناصر، لا يمكنها اللحاق بنا، كون الزقاق يفضي إلى ساحة، والأخيرة بدورها ترتبط بشارع آخر عبر زقاق جديد.

نريد لقطة زيكو

كنّا أطفالاً يافعين ومراهقين، وحين ندخل دكّان العمّ حوّاس، بحجة شراء صور أبطال الرياضة (كرة القدم، كمال الأجسام)، فيعطينا رزمة من الصور نقلّبها ونقلّبها، ونستمرّ في ذلك لربع ساعة، ولكن أعيننا كانت على صور أخرى، لراقصات أو ممثلات عربيّات أو أجنبيّات في لباس فاضح ومكشوف. ونستمرّ في تقليب صور الرياضيين، بينما نسترق النظر الى تلك الصور الأخرى ونعتبرها «سكس» في حين أنها كانت مجرّد صور مثيرة فقط، لحين مقاطعة حوّاس شرودنا قائلاً: «هيه!؟... هل انتقيت ما تريد؟!». وفنردّ عليه إمّا بالإيجاب واختيار صورة كان ثمنها نصف ليرة. أو نقول له: لا. ثم نعيد إليه صوره، قائلين: «نريد لقطة زيكو حين سجّل هدفاً في مرمى إيطاليا». وهو كان يعرف أن طلبنا تعجيزي. فيبدي تبرّماً خفيفاً.

أبو المسرح

لو أراد أي باحث أو ناقد إجراء دراسة عن الحركة المسرحيّة في الدرباسيّة، الآن، أو بعد مئة سنة، لا مناص أمامه إلاّ العودة إلى تجربة العمّ حواس، لكونه مؤسس أول فرقة مسرحيّة شعبيّة مطلع نهاية الستينات وبداية السبعينات. فحوّاس المولود سنة ١٩٤٧، درس سنتين فقط في المدرسة الريفيّة بالدرباسيّة، أسس فرقة مسرحيّة تضمّ كرداً وعرباً وسرياناً، سمّاها «بني آدم»، بالاشتراك مع الكاتب إدريس الهلالي (عربي) وغسّان برو قدسو (سرياني) وسراج أوسي (كردي)، أنضمّ إليها فيما بعض فهمي سعدون وآخرين. ويذكر بأنه كان هنالك فتيات ضمن فرقته وقتئذ. وأنه قدّم مسرحيات، كوميديّة اجتماعيّة ناقدة كثيرة، لا تتناول المشاكل والقضايا الدينيّة أو السياسيّة، بل تركّز على الجانب الخدمي ونقد العادات والتقاليد الاجتماعيّة السلبيّة بالاضافة إلى نقد ظواهر الطمع والجشع، بخاصة في المهن التي من المفترض أن تكون إنسانيّة، كمهنة الطبّ. ويشير بأنه لم يكن هنالك مصادر تمويل للفرقة، وأن كل العروض كانت مجانيّة، ويضيف: «كنّا متحمسين للعمل المسرحي، حتّى لو كلّفنا ذلك خسارة المال والجهد، سعياً وراء إرضاء موهبتنا». ويعلل سبب عدم تعرّضهم للضغوط والمضايقات الأمنيّة بالقول: «ننا كنا نعمل جل التبرع لفلسطين. وفي مقدمة أي حفلة أو عرض، نقدّم لمحة عن الوطن. وعروضنا كانت كوميديّة». بينما يذكر فهمي سعدون (أحد اعضاء الفرقة) أنه وبالتعاون مع حوّاس، ألّفا سيناريو مسلسل للتلفزيون السوري، يتناول حياة عائلة في المناطق الكرديّة السوريّة، على الحدود التركيّة، والمصاعب التي تواجهها، إلاّ أن السيناريو تمّ رفضه.

لن أعود

ويقول العم حوّاس بأنه لن يعود للمسرح مرّة أخرى، «لأن قطار العمر مضى. والنظر صار ضعيفاً، وتساقطت اسنان. ولم يعد بإمكاني قيادة درّاجة هوائيّة». وألمح بأنه لا يتابع الاعمال المسرحيّة في المنطقة، وأنه غير راضٍ عنها. وأضاف: « أستطيع المشي كثيراً. ويمكن للسلحفاة أن تسبقني. وأرفض الهجرة من وطني، تحت أيّ ظرف كان. أنا مؤمن بمقولة: «المرأة من بيت أهلها، إلى بيت زوجها، إلى القبر». ويذكر طبيعة عمله الحالي بعبارات مشوبة بالسجع الفكاهي قائلاً: «بعد أن جارت علينا الأحوال الاقتصاديّة، ولم يبق زيت في السوق، تركت مهنة بيع سندويشات الفلافل والمقالي والخبز الي، يا أخونا الغالي، وبقيت في مهنة تصليح دواليب البشر. ولامني الناس على عملي، وتقريباً أرادوا منعي، وقالوا لي: عيب، أنت مسلم، وتشتغل إسكافي!؟. هذا العمل للأخوة المسيحيين فقط». باعتبار أن مهنة الإسكافي في الدرباسيّة، في الستينات والسبعينات والثمانينات، كانت محصورة بالمسيحيين».

الدين لله وفايسبوك للجميع

وليد بركسية

صفحات تدعو لاستخدام العقل بعيداً من الفتاوى الدينية

في الآونة الأخيرة وبتأثيرات «الربيع العربي» وموجات التحرر الفكري التي رافقت كسر حواجز الخوف بالمطلق لدى كثير من الفئات، انتشرت صفحات عديدة في موقع التواصل الاجتماعي الأبرز «فايسبوك» وبعض مدونات «ووردبرس»، تنادي بإعادة هيكلة الفكر الإسلامي من جذوره، أي من كتب مسلم والبخاري الناقلين «الأكثر مصداقية» عموماً للأحاديث النبوية.

صفحة «تخاريف البخاري» من أبرز الصفحات في هذا الإطار، اسم صادم لجموع المؤمنين عموماً، اختاره مؤسس الصفحة عمر المصري متعمداً «لهدم هالة القدسية حول كتب البخاري التي تسيء للإسلام والنبي وتساهم في تغييب عقول الناس بقصص خرافية لا يصدقها حتى المجنون». فالمصري لا يعترف بـ«صحيح البخاري» كأصح كتاب إسلامي بعد القرآن، ويرى في نشاطه رداً على «كهنة السلفية» الذين باتوا نجوم القنوات الفضائية «بأفكارهم الهدامة» الرامية إلى تحويل الشباب العربي إلى «إرهابيين» استناداً إلى الأحاديث الواردة في «كتب البخاري».

يعلن المصري رفضه لوصاية رجال الدين و«الكهنة» على المجتمع، ويرى نشاطه الافتراضي واجباً «لفضحهم وكشف ما يخفونه عن الناس لاستعبادهم وسلب عقولهم»، ومن هذا المنطلق لا يتعاون المصري مع رجال دين «أكثر اعتدالاً» بل يبقي نشاطه شخصيا من دون أن يتعدى أحيانا نقل الأحاديث النبوية الواردة في صحيحَي مسلم والبخاري، والتي يشكك في صحتها مع تعليقات لاذعة (الأحاديث التي تتناول الحياة الجنسية للنبي محمد وأمهات المؤمنين، الأحاديث التي تحض على «العنف والإرهاب» تحت مسمى «الجهاد»، ..)

تأتي منشورات المصري مستفزة للكثيرين بسبب اللغة الغاضبة التي يهاجم بها «الرموز الدينية» ورجال الدين عموما. ويمكن وصف الصفحة بالسطحية في هذا الإطار، إذ لا تقدم البديل الفكري أو التفسير المنطقي ولا تتعدى «الثرثرة المنفعلة»، ولا تنفصل الصفحة عن إطارها السياسي وخاصة في فترة حكم الأخوان المسلمين لمصر والتي يراها المصري «تجارة سياسية بالدين لا مثيل لها في العالم» مؤكداً على ارتباط الواقع السياسي والأمني الراهن في المنطقة بالفكر الديني الذي يحاربه، مبدياً عدم رغبته في «إعادة هيكلة الفكر الديني» وإنما مجرد فسح المجال أمام المسلمين للتفكير بلا وصاية من أحد.

بالطرح السابق ذاته تنشط صفحة «من تخاريف البخاري»، التي يهدف صاحبها محمد البيروتي «لإظهار الحقائق المغيبة في التراث الإسلامي» و«محاربة الفتاوى العجيبة» التي تنتشر في الوقت الراهن بناء على أحاديث منسوبة إلى صحيح البخاري بالتحديد. ومع تحفظه على ذكر الدولة التي تصدر الصفحة منها، لأن ذلك غير مهم بالنسبة إليه في ظل توجهه للجمهور العربي عموماً، يوضح البيروتي المشاكل التي يتعرض لها من الدعوات التكفيرية والإهانات والشتائم والتهديد بالقتل (تماما كحال الصفحة السابقة). ويمكن ملاحظة ذلك بوضوح في منشورات الجمهور على الصفحة وفي التعليقات أيضا، ما يعطي إشارات واضحة حول الطبيعة الاستفزازية لتلك الصفحات من ناحية الخطاب ربما على حساب خلقها حواراً فاعلاً ومفيداً، وإن كان «هدم الهالة» وكسر «القدسية» مستحباً في الأحوال كافة.

في المقابل، تنشط صفحة «فتح الباري في الرد على أصحاب تخاريف البخاري» بحزم ضد «سموم» الصفحات السابقة «الهادفة لمحاربة الإسلام كديانة» بعد خروجها عن «نطاق النقد المباح» عبر «التلاعب بالألفاظ والهويل والسب والتجريح». وتأتي الصفحة كجزء من نشاط تعاوني مع «منتدى الحوار الإسلامي المتخصص في الرد على الشبهات وعلى أصحاب الفكر الخارجي»، كما يوضح مدير الصفحة، علي مقلد (وهو محام وناشط في مجال حقوق الإنسان - مصر) في حديثه لـ«المدن».

يضيف مقلد أن «الصفحة موجهة إلى جميع الطوائف والملل والأفكار»، مؤكداً منهجية الصفحة «العلمية» في المقام الأول، رداً على الأسلوب غير العلمي الذي تتبعه «الصفحات المسيئة» من خلال اعتماد أصحابها على «غوغل» والمواقع غير الموثوقة دينياً وعلمياً لتثبيت أفكارهم. ولا يرى مقلد في منشورات صفحته معلومات دينية، بل يطلق عليها صفة «معلومات علمية اجتماعية سياسية وفنية».

لا تتعاون الصفحة مع أي رجال دين للرد على منشورات «تخاريف البخاري»، حيث يوجد لكل «شبهة» رد علمي وديني. ويرى مقلد في نشاط الصفحة «دعوة إلى هيكلة الفكر ككل عموماً، ودعوة إلى إعادة وتقويم الفكر الديني بآليات علمية ومنهجية جديدة»، مستشهداً بصحوة الأزهر بعدما أصبح له دور مؤخراً في تصحيح المفاهيم السائدة، معتبراً ذلك واجباً يمتد إليه بشكل شخصي أيضاً، خاصة أنه «طالب علم في الأزهر وحاصل على دراسة دينية في معهد إعداد الدعاة».

على صعيد أكثر راديكالية، تنشط مدونة «القصاصات» على «ووردبرس»، وتبث فتاوى وأحاديث دينية يراها أصحابها جزءاً من الإسلام الحقيقي، «استناداً الى المراجع المعتمدة في كبرى المؤسسات الإسلامية في التعليم والفقه، بشكل قصاصة جديدة كل يوم جمعة». ويبث الخطاب الديني المعاصر، بحسب المدونة وصفحتها في «فايسبوك»، «إسلاما مقصوصا بغرض التقرب من القيم الغربية السائدة»، ويرفض أصحاب المدونة الحديث مع «المدن» بسبب «حداثة نشاطهم وعدم انتشارهم بشكل كبير بالنسبة للرأي العام». والمثير للاهتمام أن نوعية الأحاديث والفتاوى التي تنشرها الصفحة هي ذات مضامين تحاربها صفحات «تخاريف البخاري»، ويمثل ذلك ربما نوعاً من رد الفعل المعاكس بأسلوبي «النشر والدعوة» من دون الصدام المباشر.

وسط كل ذلك التطرف والتشبث بالآراء، تبرز بشكل أكثر عقلانية صفحة «أنا إنسان لا يعترف بسلطة رجال الدين» الناشطة، من دول عربية عدة في آن واحد (اليمن، سوريا، المغرب، الأردن، فلسطين، ..)، على صعيد رفض وصاية رجال الدين من كافة الأديان والطوائف على العقل البشري، وذلك بخطاب هادئ بعيد عن التعصب والتجريح بمعتقدات الآخرين، مع توجهها بشكل خاص إلى «المتخبطين في عالم الوهم الكهنوتي» بأسلوب نقد الخطاب الديني وتحويله نحو العقل والمنطق، حسب مؤسس الصفحة شمر يهرعش (اليمن).

تسعى الصفحة بشكل صريح إلى إعادة هيكلة المفاهيم الدينية السائدة، من دون إلغاء الدين في الحياة والمجتمع، بترك التدين خياراً يخضع للإرادة الحرة. وتنشر الصفحة منشورات كثيرة حول الدين والمنطق إضافة إلى «السياسة وقضايا المقاومة وحرية الشعوب وتقرير المصير والحرية الفردية». وتعتمد في فكرها العام على كتب علم النفس والشريعة الإسلامية والفلسفة والأنثروبولوجيا، وتنشر بشكل دائم النتاج الفكري الموازي لذلك، لكتاب من نوع الصادق النيهوم، محمد أركون، نصر أبو زيد، وغيرهم، لتحقيق مزيد من العمق في الطرح.